معهد المخطوطات العربية
وخدماته البارزة في سبيل العلم

الدكتور كفيل أحمد القاسمي☆

من المعلوم أن جامعة الدول العربية تأسست في اليوم الثاني والعشرين من شهر آزار (مارس) سنة ١٩٤٥م، ففي اليوم المذكور وقع على ميثاقها مندوبو الدول العربية السبع - التي كانت "مستقلة" في ذلك التاريخ وهي: المملكة الأردنية، والجمهورية السورية، والمملكة العراقية، والمملكة العربية السعودية، والجمهورية اللبنانية، والمملكة المصرية، والمملكة اليمنية. وقد انضمت إلى الجامعة المذكورة - ووقعت على ميثاقها - الدول العربية التي استقلت بعد ذلك: السودان في ١٩/١/ ١٩٥٦م، ليبيا في ٢٨/٣/١٩٥٦م المغرب وتونس في ١/١٠/١٩٥٨م والكويت في ٢٠/٧/١٩٦١م.

والمادة الثانية من "ميثاق جامعة الدول العربية قسمت الأمور التي يجب على الدول المشتركة في الجامعة ان تتعاون فيها "تعاونا وثيقا"، بحسب نظم كل دولة منها ونظمها" إلى ستة اقسام:

١- الشئون الاقتصادية والمالية.
٢- شئون المواصلات
٣- الشئون الثقافية
٤- شئون الجنسية والجوازات
٥- الشئون الاجتماعية
٦- الشئون الصحية

☆ بروفيسور في قسم اللغة العربية وآدابها بالجامعة الإسلامية، عليكره (الهند)

لقد اتفقت الدول العربية - منذ بداية تكوين جامعتها - على إنشاء الأجهزة والهيئات لتنظيم وتنسيق شئون الثقافة والتربية والتعليم فيها. وقد انضم إلى الأجهزة الثقافية - في تواريخ مختلفة - ثلاث مؤسسات ثقافية:

١ - معهد المخطوطات العربية

٢ - متحف الثقافة العربية

٣ - معهد الدراسات العربية العالية

وقبل أن أتكلم عن معهد المخطوطات أريد أن ألقى الضوء على دور المكتبات في حياتنا الثقافية.

وردت في القرآن وفي كتب السنة نصوص كثيرة تحض على العلم وتبين فضل العلم وتهدي إلى طرق تربية المتعلمين وتأديبهم ووردت أحاديث كثيرة وآثار جليلة عن عناية الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة والتابعين بالعلم والتعليم.

> "عُني الخلفاء المسلمون منذ فجر العهد الأموي بالكتاب العربى وتكثيره ونشره بين الناس وإنشاء الخزائن التي تضم الكتب والدفاتر والسجلات كما عُنوا بالحصول على كتب العلمية القديمة لتكون مرجعا لهم ولأولادهم وكانوا يزودون المساجد الجامعة من كل إقليم بالخزائن التى تضمّ المصاحف والأجزاء الحديثة، وكتب العلم، وكان كثير من العلماء منذ زمن قديم يقفون كتبهم وأوراقهم ومخطوطاتهم على خزائن المساجد ودور التعليم يتقربون بذلك إلى الله ويرجون نشر العلم ومعونة أصحابه". [١]

ولعل أقدم الخزائن العربية التى عُرفت بعض أخبارها هى خزانة الخليفة الأموي خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان (- ٨٥هـ). وكان من كبار علماء المسلمين وعقلائهم، اشتغل بالعلم واهتم بالكيمياء والطب

١ - راجع: إرشاد الاريب/ ياقوت الحموي/ ج: ٤، ص: ٢٨٧

والنجوم فأتقنها، وألّف فيها رسائل، ولمامات أبوه أجمع بنوا أمية على تولية الخلافة فأقام فيها ثلاثة أشهر ثم غلب عليه حبه كتبه وبحوثه فعزم على ترك الأمر[١] وقد ظلت خزانة خالد هذه محفوظةً في البلاط الأموي. ولما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز فتحها للناس للإفادة والتعليم من نفائسها، وقد انقطعت أخبارها بعد ئذفلم نعثر لها على خبر بعد خلافة عمر بن عبد العزيز. وممن ذكر عنهم الاعتناء بجمع الكتب من خلائف أمية الوليدبن عبد الملك (٩٦هـ) والوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٦هـ).

ولقد اتسعت المكتبات فى العصر العباسي حتى أن هذا العصر يعد بحق عصر الموسوعات العلمية والمكتبات الإسلامية ولقد ساعد على ذلك اتساع حركة التاليف والترجمة وتقدم صناعة الورق التي هي أساس صناعة الكتاب ويظهر أن الخزانة الكبرى التي تناقل الناس أخبارها في عصر بنى العباس هي الخزانة التي عُني بها الخليفة المامون العباسى(٢١٨هـ) هي خزانة الكحمة أو بيت الحكمة ببغداد. الغالب أن الرشيد هو الذي أنشأ هذه المكتبة. وكان المامون يطلب من ملوك عصره عوضا عن الهدايا النفيسة أن يعطوه ما في خزائنهم من كتب الحكمة والفلسفة. وقد بلغت مخطوطات هذه الدار آلافاً في جميع فروع العلم. ولاشك في أن هذه الدار كان مركزا ثقافياً جليلاً في بغداد، وأن العلماء كانوا يقصدرونها من شتى أنحاء العالم الإسلامي يطالعون مافيها من الآثار.

ومن أشهر المكتبات:

١- مكتبة قرطبة. ولقد أنشأ المستنصر بن الناصر في الأندلس في قرطبة مكتبة جمع إليها الكتب من أرجاء العالم، بل كان يبعث في شرائها رجالا من التجار ومعهم الأموال الطائلة منافسةً لبني العباس في اقتناء الكتب. ويقال إنه اشترى كتاب الأغاني للأصبهاني بألف دينار من

١- راج الفهرست/ ابن النديم/ ص :٢٥٢، والبيان والتبيين/ الجاحظ/ج:١، ص :١٧٨

ذهب. ويقدر ابن خلدون والمقري مجموع ما حوته هذهالمكتبة بما يصل إلى أربعين ألف مجلد[١] وقد انتشرت المكتبات في سائر بلاد الأندلس حتى قيل بأن غرناطة وماحولها كان فيها سبعون مكتبة. وقد ظلت مكتبة قرطبة حتى بيع أكثرها في حصار البربر ثم اجهزالفرنج على الباقي منها.

٢ ـ مكتبة الفاطمية بمصر. فقد حذا الفاطميون في مصر حذو العباسيين في بغداد وبني أمية في الأندلس. فحينما تولى الخلافة العزيز بالله سنة ٣٦٥هـ استوزر يعقوب بن كلس وكان الخليفة محبا للكتب فكلفه بترتيب الدواوين وتقريب العلماء. ولقد جمع من الكتب جانبٌ كبيرٌ في قصر الخليفةِ في قاعات سمّيت "خزانة الكتب". وقد بُذلت أموال طائلة في الحصول على المؤلفات المهمة في التاريخ والأدب والفقه وغير ذلك. و"كانت تحتوي على مليون وست مأة ألف مجلد"[٢] في الفقه والنحو واللغة والحديث والتاريخ والروحانيات والكيميا. و"كان للعزيز عناية كبيرة بخزانته يتعهد ها بنفسه حينا بعد حين وقد رتب لها قيماً يتولى شؤونها ويجالسه ويقرأ له الكتب وينادمه".[٣]

٣ ـ وأما دار العلم أو دار الحكمة فهي غير خزانة العزيز أنشأها ابنه الحاكم بامر الله سنة ٣٩٥هـ. وقد اعتبرها البعض مدرسة اعتماداً على أن الحاكم أقام بها القراء والمنجمين واصحاب النحو واللغة وغيرهم وأجرى لهم الأرزاق واباح الدخول إليها لسائر الناس وجعل فيها ما يحتاجون إليه من الحبر والأقلام والورق وكانت تجرى بها المناظرات العلمية إلى أن أبطلها الفضل بن أمير الجيوش بدر الدين الجمالى ولكن ابن البطائحي أعادها سنة ٥١٧هـ، وقد وصل عدد الكتب بها إلى مايقرب مائة الف ١٠٠,٠٠٠ كتاب.[٤]

١ ـ نفح الطيب/ ج:١، ص: ٣٦١ وما بعدها، ابن خلدون/ ج:٤، ص: ١٤٦
٢ ـ كتاب السلوك/ المقريزي/ج:١، ص: ٤٠٨ ـ ٤٠٩
٣ ـ ابن خلدون/ ج:١، ص: ٣٣٨
٤ ـ الخطط المقريزية/ ج:٢، ص: ٣٣٤ ـ ٣٣٥

وهذه الثروة العقلية منيت بمن بددها ودمرّ الكثير منها خلال الحروب والفتن السياسية والطائفية والمذهبية وغزوات التتار التى أخذت معها الأخضر واليابس. ثم في غمرة الجهالة التي أطبقت على العالم الإسلامى في القرون المتأخرة والتي أفقدت عامة الناس إحساسهم بهذا التراث وتقديرهم له. ومما يوسف كل الأسف لم يبق منه إلا جزء صغير جداً. وحسبنا لكي ندرك بلغ ما أصاب التراث أن نقارن بين ما يذكر من كتب تراجم العلماء والأدباء أو كتب الفهارس كفهرست ابن النديم وما يمكن أن نجده منه الآن.

ومن هنا تأتي أهمية دور معهد المخطوطات وأن يكون قرار إنشائه من أول القرارات المهمة التي اتخذتها الجامعة العربية مع بدايتها ادراكاً منها للخطر الذي يحيق التراث وعسى ان يتمكن هذا المعهد من نقل صور لكل المخطوطات التي خرجت من أيدينا ورحلت إلى المكتبات الأوروبية. ومن دواعى الفرح والسرور أن العرب مع بداية النصف الثاني من القرن العشرين يحاربون التخلف ويستعيدون ماكان لهم من حضارة أو هكذا هم يحاولون، وقد أصبح في جميع البلاد العبرية مكتبات كثيرة من حيث العدد مثلاً: مكتبات عامة ومكتبات للوزارات والجامعات والمؤسسات والمجامع العلمية والمدرسية، ولكن يجب علينا أن نحدد بالضبط ماهية المكتبة في العصر الحديث.

معهد المخطوطات العربية:

قد انضم إلى الأجهزة الثقافية التي ذكرناها آنفا– في تواريخ مختلفة– ثلاث مؤسسات ثقافية.

فالأولى منها وهي الغرض هنا أنشئت باسم "معهد المخطوطات العربية سنة ١٩٤٦م"، وكان إنشاؤه مستندا إلى أولى القرارت التي اتخذتها اللجنة الثقافية فور تكوينها. وإليک نص القرار، الذي يقوم مقام النظام الأساسي للمعهد المذكور:

المادة الأولى ـ ينشأ معهد اسمه "معهد إحياء المخطوطات ملحق بالأمانة العامة لجامعة الدول العربية.

المادة الثانية ـ مهمة المعهد مايلي:

الف ـ جمع فهارس المخطوطات العربية الموجودة في دور الكتب العامة والخاصة وفهارس المخطوطات التي يمتلكها الأفراد، لتوحيدها في فهرس عام.

ب ـ تصوير أكبر عدد ممكن من المخطوطات العربية القيمة.

ج ـ وضع هذه المصورات تحت تصرف العلماء أولاً بعرضها لمن يطلبها للاطلاع عليها بواسطة الآلات العارضة المكبرة أو بإعطاء صور مكبرة منها، بأسعار مناسبة أو بإعارة نسخة ثانية منها للعلماء الذين يطلبونها من البلدان الأخرى عن طرق المؤسسات العلمية أو بإرسالها إليهم بأسعار مناسبة.

د ـ طبع صور المخطوطات القيمة التي نصها صحيح وخطها مقروء ونشر نصوص المخطوطات ذات الأهمية الكبرى.

هـ ـ تنظيم التعاون بين العلماء والمؤسسات العلمية في سبيل نشر المخطوطات، وتزويد الناشرين بالمعلومات اللازمة عن المخطوطات التي يُعنون بها، وإعلامهم بأسماء من يُعنى بالمخطوطات مماثلة لمخطوطهم أو مشابهة لهم.

و ـ وإصدار نشرة دورية عما طبع أويطبع من المخطوطات العربية والإشارة إلى ماهو معدّ للطبع.

المادة الثالثة ـ يتمتع هذا المعهد بشخصية معنوية مستقلة فيقبل الإعانات والهبات وينظم الاكتتابات.

وتتعلق المادة الرابعة وماتليها إلى المادة الثامنة بإدارة المعهد والميزانية وغير ذلك.

والمادة التاسعة – للعمل في معهد المخطوطات العربية مرحلتان،

المرحلة الأولى تقتضي جمع الفهارس المنشورة للمخطوطات العربية وصوراً من الفهارس التي لم تنشر لتلك المخطوطات، وفي الوقت نفسه جمع صور لأنفس المخطوطات العربية في العالم.

وأما المرحلة الثانية فيشرع في بدءها بتصنيف الفهارس وصور المخطوطات وإعدادها لتوضع تحت تصرف جمهور العلماء والناشرين ومن ثم يدخل المعهد فى تنفيذ مهمته بصورة عامة". [١]

ومعهد المخطوطات العربية عمره يتجاوز بضع وخمسين عاماً، فقد نشأ بعد سنة واحدة من قيام جامعة الدول العربية في ابريل ١٩٤٦م وفى ٢٥/ يوليومن سنة ١٩٧٠م ألحق المعهد بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، التي انبثقت عن جامعة الدول العربية وكان مقره القاهرة حتى انتقل إلى تونس مع انتقال الجامعة العربية إليها" [٢] وقرر المجلس التنفيذى للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في دورته الثالثة والعشرين التي عقدت بالطائف عام ١٩٧٩م نقل "معهد المخطوطات العربية" إلى الكويت وباشر المعهد مهامه في مدينة الكويت منذ ذي الحجة ١٤٠١هـ/ اكتوبر ١٩٨١م بإدارة الأستاذ الدكتور خالد عبد الكريم بعد أن خصصت له الدولة المضيفة المبنى المجهز بالأدوات والأجهزة المختلفة المناسبة لمهماته. وأصدر المعهد في ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م نشرة اعلامية عرّف فيها الخطة المرحلية التي وضعها المجلس الاستشاري الجديد للمعهد وهو يضم نخبة من خبراء التراث العربي من الاقطار العربية. و تتلخص مهمات الخطة المرحلية الجديدة في:

١ـ تصوير أكبر عدد ممكن من المخطوطات العربية ذات القيمة العلمية عن طريق البعثات أو التعاقد مع مؤسسات التراث المعتمدة في الأقطار.

٢ـ إعداد فهارس شاملة مفصلة متجددة؛

١ ـ راجع: ثقافتنا فى جامعة الدول العربية / ساطع المصرى/ ص: ٣٢ ـ ٣٤

٢ ـ راجع: مجلة الكويت/ العدد ٧٣، سبتمبر/ ص: ٢٩

الف ـ للمخطوطات العربية المحفوظة في مكتبات العالم.
ب ـ للمخطوطات التي تمَّ طبعها.
ج ـ للمخطوطات التي يصورها المعهد.

٣ ـ إعداد الدراسات الخاصة بصيانة التراث وترميمه، وتقديم المشورة المتصلة إلى الأقطار العربية.

٤ ـ مساعدة المحققين والباحثين في الحصول على نسخ من المخطوطات المصورة و تقديم المعلومات لهم، وتنسيق حركة التحقيق في العالم ووضع التشريعات لحفظ حقوق المحققين وإعداد نخبة جيدة من المحققين من خلال الندوات والبعثات والبحوث والحلقات الدراسية والتدريبية.

٥ ـ إصدار نشرة شهرية تتابع إخبار التراث العربي في جميع أنحاء العالم عن طريق مراسلين متخصصين.

٦ ـ إصدار مجلة تختص بشؤون المخطوطات العربية في العالم ودراسة التراث العربي المنشور والمحفوظ وتحليله ونقده.

وفي سبيل تحقيق تلك الاهداف وحرص المعهد على الإفادة من الجهود المبذولة في حفظ التراث وتحقيقه فقد دعا المؤسسات والأفراد من المعنيين به في الوطن العربي والعالم إلى تعريفه على أخبار التراث المختلفة وإلى التعاون الوثيق معه لتنفيذ بعض برامجه.[١]

والمعهد سعى دائما بعد انتقاله إلى الكويت إلى أن يكون جهاز خدمات علمية متخصص يقوم على تجميع نصوص التراث العربي وتيسير تداولها وتحقيق الأهداف التي ينشدها المهتمون بالتراث، كما يتطلع إلى أن يصبح جهازا أكاديميا، ولهذا وجه الدعوة إلى جميع العلماء والباحثين والمؤسسات والهيئات والجامعات للتعاون معه عن طريق:

ـمراسلة بصورة دائمة وكان عنوانه "معهد المخطوطات

١ ـ راجع: آراء وأنباء في مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٨٢/ ص: ٢٧٥ ـ٢٧٦

العزبية ص ب: ٢٦٨٩٧، الصفاة، الكويت.

– تزويد بفهارس المخطوطات المتوافرة الأصلية كانت أو مصورة، وبما يستجد من أخبار أو ماينشر من كتب وبحوث.

– موافاته بالمقالات والبحوث والدراسات التي تدور حول قضايا التراث العربي أو تعريف نفائس مخطوطاته ونصوصه، أو فهرسها، أو تحليلها.

وفي ختام النشرة رحب المعهد بالمقترحات والتصورات التي ترسل إليه بغية إعانته على تحقيق أهدافه في خدمة التراث العربي الإسلامي.[1]

ولقد أصدر المعهد أكثر من فهرس، فهرس المخطوطات العربية في العالم، وآخر للمخطوطات العربية في مكتبة ستراسبورغ الوطنية في باريس وفهرس مكتبة إستانبول وغيرها، هذا إلى جانب إصداره نشرة كل شهرين ومجلة نصف سنوية محكمة...... ونشر وتحقيق بعض كتب التراث.

وقد بذل المعهد جهده في تجميع التراث، وضرورة حصره في مكتبات العالم شرقا وغربا. وذلك من خلال تقدير المعهد عن المخطوطات العربية في يوغوسلافيا والهند. ففي الهند تم ترتيب زيارة ميدانية لعدد سبع عشرة مكتبة في خمس مدن هندية، مثل: مكتبات المتحف الوطني، والجامعة الملية الإسلامية، والمعهد الهندي للدراسات الإسلامية والمكتبة الخاصة للشيخ أبي الحسن زيد الفاروقي في نيو دلهي، ومكتبة متحف سالار جنگ الوطني، والآصفية، والمكتبة السعيدية، والجامعة النظامية في حيدر آباد، فضلاً عن مخطوطات مدينة مدراس ومكتبة خدا بخش، بتنه، ومكتبة رضا، رام فور، ومكتبة مولانا آزاد في جامعة عليكره الإسلامية.

١ ـ نفس المرجع/ ص: ٢٧٦ـ٢٧٧

وحسب قول عصام الشنطي، مدير المعهد بالنيابة فى الثمانين من القرن العشرين "بأن المعهد يقوم بالكتابة إلى جميع الهيئات العربية التي صورت مخطوطات الهند وغيرها للحصول على نسخة من هذه المخطوطات بهدف التنسيق والتبادل وبتجنب التكرار وإعادة التصوير...... والمعروف أن جامعة الإمام ابن سعود بالرياض والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة قامتا مثلاً بتصوير بعض ذخائر المخطوطات الموجودة في الهند".

لفد بلغ عدد مصورات معهد المخطوطات في الكويت حوالي سبعة آلاف مخطوطة مصورة على أفلام ميكروفيلم. وما من كتاب نُشر محققا منذ إنشاء المعهد في هذه الفترة إلا وتوجد فيه إشارة إلى معهد المخطوطات ورجوعه للنسخ الموجودة أو بتوجيه من المعهد.

فكان معهد المخطوطات العربية بالكويت ضرورة لا بدمنها. ونحن نعلم أن في هذا المعهد كان عدد كبير من خبراء متخصصين وكانت في أيديهم الوسائل والأدوات الحديثة التي تساعدهم في أداء مهمتهم وكنا نرجو أن المعهد يلعب دوره الخطير في حفظ التراث الإسلامي وتواجد المعهد في الكويت وإسهامها في جزء من نفقات المعهد هو استشعار منها بهذا الدور في حياة الأمة العربية والإسلامية. ولكن الاسف أن الاحتلال العراقى سبب نقل المعهد مرة ثانية إلى القاهرة فى أوائل التسعين فى القرآن الماضى وندعوا من الله تعالى ان المعهد سيحقق احلام المؤسسين من هذا المقر أيضا كما انه لعب دوره الهامه باحسن وجه مّن الكويت.